

الفصل الثاني

القرآن .. والتحديات بين الأمس .. واليوم

● التحديات الفكرية والعقائدية للقرآن في الماضي - تحديات الوثنية
المادية :

.. واجهت الدعوة الاسلامية - وهي دعوة لتنظيم الاستمتاع بالحياة المادية التي يعيشها الإنسان على الأرض ، على أساس أخلاقي ، وفي رعاية لكرامة الإنسان ، تحقيقاً للعدل الاجتماعي بين الأفراد جميعاً - واجهت وهي بمكة : تحديات الوثنية المادية ، أو تحديات الشرك ، واتهامات الماديين للقرآن بأنه : سحر و خداع .. وبأنه أساطير الأولين اكتتبها الرسول عليه السلام .. وبأنه أضغاث أحلام يصعب تفسيرها .. وبأنه مؤلف ومتقول ، ونسبت افتراء إلى وحى الله .

.. كما واجهت اتهام هؤلاء الماديين ، أو المشركين للرسول عليه الصلاة والسلام ، بأنه : كاهن .. ومجنون .. وشاعر .. ومسحور - أى معطل بالأكل والشرب - وبشر ، وليس بملك .. وأنه ليس من الأثرياء ، ولا من العظماء والزعماء .. وأنه تعلم القرآن ونقله عن غيره .

.. وأخيراً واجهت سوء تصورهم لله على أنه ، سبحانه ، جل جلاله :

يلد وينسل ، وأن الملائكة بنات له وأن له شركاء من الجن .. ومن الأصنام .. وأنكروا وحدته في الألوهية .. كما أنكروا البعث واليوم الآخر .. وحرموا ما أحله الله ، استغلالاً للأموال الخاصة ، لمصالح كهانهم وأصحاب الرياسة الدينية فيهم .

وقد تكفل القرآن الكريم في السور المكية فيه بالرد على هذه الادعاءات . ومن قراءتها جميعها تحدد الاتهامات . ومنهج رفضها ونقضها . وسورة الطور تشير إلى كثير مما وجه إلى الرسول عليه السلام ، وإليه سبحانه ، وإلى رفضه وإنكاره في صورة تحد أو سخرية واستهزاء في قول الله تعالى :

« فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نترصب به ريب المنون . قل تريبصوا فاني معكم من المترصبين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، أم هم قوم طاغون . أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين . أم خلقوا من غير شيء (أي من غير خالق) أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون . أم لهم سلم يستمعون فيه ، فليأت مستمعهم سلطان مبين . (أي بحجة واضحة) أم له البنات ولكم البنون . أم تسألهم أجراً فهم من مفرم مثقلون . أم عندهم الفيب (عن طريق الرسالة إليهم) فهم يكتبون . أم يريدون كيداً ، فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم الله غير الله ، سبحان الله عما يشركون . وأن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مرگوم . فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون » (١) ..

.. فهذه السورة تشير إلى ادعائهم بالنسبة للرسول عليه السلام : بأنه كاهن .. ومجنون .. وشاعر ، وإلى وصفهم القرآن : بأنه متقول ومؤلف له ، ونسب إلى الله كذباً ، وإلى وصفهم الله بأنه يلد .. وله شركاء من غيره .

ولتأكيد أن هذه الاتهامات استهدفت من جانب هؤلاء الماديين والوثنيين : الكيد للرسول عليه السلام .. كما استهدفت تجميد دعوته ، نصحه القرآن - عليه السلام - بأن ينصرف عنهم ويستمر في دعوته : « فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون » .. وذلك بعد أن أكد

(١) الطور : ٢٩ - ٤٥

له : أنهم هم أنفسهم الذين سيصابون وحدهم بأضرار كيدهم :
« فالذين كفروا هم الكيِّدون » ..

وتصدرت سورتا : المائدة ، والأنعام ، بوجه خاص للرد على افتراءات
الكهان في الحل والحرمة في أموال الناس . على نحو قول الله تعالى :
« ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا
يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لا يعقلون » (٢) ..

وقوله : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا
لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله ، وما كان
لله فهو يصل الى شركائهم ، ساء ما يحكمون » (٣) ..

● تحديات العقائد والمذاهب الدينية في الشرق :

لم يبق المجتمع الإسلامي على عهد قيامه بالمدينة خاصة بالمسلمين
وحدهم . وإنما بعد فتح مكة لم يدخل المكيون فقط ، ولا العرب في شبه
الجزيرة العربية وحدهم في دين الله أفواجا . بل دخله هؤلاء وهؤلاء ،
ومعهم تباعا تلك المجتمعات ، مما كانت تظلمهم الحضارة الرومانية أو
الحضارة الفارسية في الشرق الأدنى ، ثم في الشرق الأوسط ، والأقصى ،
وشمال إفريقيا .. إلى آخر ما يعرف من مجتمعات إسلامية في آسيا ..
وإفريقيا وأوروبا .

ومع امتداد ظل الإسلام على أرض الله اتصل الإسلام برواسب الثقافات
التقدمية .. والأديان والمذاهب السابقة على الإسلام ، مما كانت لدى أهل
الكتاب ، أو من لهم شبهة بكتاب .

● تحديات علم الكلام عند اليهود والمسيحيين :

فاتصل الإسلام بعلم الكلام عند اليهود والمسيحيين ، وابتدأ يراود
تفكير المسلمين : بعض آراء لهؤلاء وأولئك في مشاكل كانت لهم خاصة :

(٢) الأنعام : ١٣٦

(٣) المائدة : ١٠٣

كمشكلة الأقانيم .. ومشكلة الرجعة ، والمهدى المنتظر .. ومشكلة الحلول وعصمة الإمام .. ومشكلة التجسيد والتشبيه .

وأصبحنا نرى عند متقدمى المدرسة الاعتزالية كأبى الهزبل العلاف : حلا لتعدد صفات الله على نمط حل علم الكلام المسيحى لتعدد الأقانيم . فيرجع الصفات جميعها إلى صفتى العلم والحياة ، ثم يتصور أنهما عين الذات . وعلم الكلام المسيحى - متأثراً بالأفلاطونية الحديثة - يعود بأقنومى : ابن الله .. والروح القدس .. إلى ذات الله . أى أن الأقانيم الثلاثة لا تشكل فى الوجود إلا موجوداً واحداً له صفتان .

.. وأصبحنا نرى أيضاً : مشكلة الرجعة فى علم الكلام اليهودى ، وعلم الكلام المسيحى خاصة بعبسى ، يتبناها بعض مذاهب الشيعة بالنسبة للإمام، كما تصبح الرجعة نفسها من عقائد هذه المذاهب ، وتتفرع عنها : فكرة المهدى المنتظر ، والأحاديث المتصلة بها . وتقوم الرجعة على أساس أن الإنسان المميز بالرسالة أو الأمانة لا يموت . بل يخفى فقط إلى وقت معلوم يظهر بعده حاملاً رسالة الإصلاح للبشر من جديد .

.. أما مشكلة الحلول - التى هى أصلاً من روافد الفكر البوذى والبراهمى - وتلققتها الكنيسة المسيحية لتقيم عليها عصمة البابا فى الرأى . ووجوب الطاعة له فى غير حد وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الكنسية .. فإنها برزت فى الفكر الشيعى بين المسلمين . وتطبيقاً لها فى هذا الإتجاه الشيعى يتمتع « الإمام » بالعصمة فى القول والرأى . بل يذهب بعض أتباع الحلول إلى إسقاط التكاليف التى كان الرسول عليه السلام قدوة فى أداؤها : عن الإمام المعصوم ، المشاهد ، أو المعيب على السواء .

.. ومشكلة التجسيد والتشبيه عندما أثرت أولاً فى علم الكلام اليهودى ، ثم فى علم الكلام المسيحى : أثرت تحت ضغط الفهم الحسى أو الفهم المادى للمعبود وصفاته ، وهو فهم يقوم على قياس الغائب على الشاهد ، الذى تستخدمه الوثنية المادية فى وصف المعبود المعين ، فالوثنية المادية لا تتخرج من وصف المعبود بالذكورة أو بالأنوثة .. وبالزواج .. وبالنسل .. وبالأكل والاستمتاع ، على نحو ما يستمتع الإنسان .

وابتدأنا نرى المشبهة أو المجسمة طريقا لبعض الكلاميين في تحديد صفات الله التي تعطى في ظاهرها : الميل إلى ما للإنسان ، تقريبا للمعنى من طاقة العامة على الفهم : كالاستواء على العرش في قوله سبحانه : « الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش » (٤) .. وكالحديث عن يد الله ، فى قول الله تعالى : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » (٥) .. وفى قوله : « بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء » (٦) ..



● تحديات الفكر الفارسى :

كما اتصل الإسلام — بعد خروج المسلمين به من شبه الجزيرة — بالفكر الفارسى وهنا عرف المسلمون مذهب المثنيين . والمثنويون هم القائمون بالهين فى تحليل نظام الوجود للعالم : إله للنور .. وآخر للظلمة . والأنوار فى العالم هى الموجودات العليا ، وعلى رأسها نور الأنوار . بينما الظلمة : للمادة والكائنات التى تبعد عن محيط الأنوار فى الأرض .

وعن اتصال المسلمين بالفكر الفارسى ظهر فى تفكيرهم ما يسمى « بالإشراق » . وهو اتجاه يلائم بين تصور الوجود فى نظام الإسلام على أن الله هو الأول والخالق وحده ، وبين ذلك التصور الآخر الذى توحى به المثنوية من ترتيب الموجودات فى النور .. والظلمة . فأطلق على الله : نور الأنوار .. كما أطلق على الملائكة أنهم : أنوار ، ونورانيون ، يتلونه فى مرتبة الوجود فى تسلسله .. إلى المادة . وأبرز أصحاب هذا الاتجاه الإشراقى فى التفكير الإسلامى هو السهروردى المقتول فى القرن السادس الهجرى .



● تحديات الفكر الهندى :

وافتح طريق الفكر الهندى أمام المسلمين . وهو تفكير قائم على الدعوة

(٥) الفتح : ١٠

(٤) الفرقان : ٥٩

(٦) المائدة : ٦٤

إلى الهروب من الدنيا ، ومن الاستمتاع بمتعها .. هو تفكير صوفي يستهدف فناء الجسم في الإنسان .. واتحاد روحه مع براهما .. الإله الأكبر . وأقبل بعض العلماء من المسلمين على هذا الاتجاه الصوفي ، والربط بينه وبين ما يطلب في الإسلام من الزهد - بمعنى عدم الإسراف - في استخدام متع الحياة . فظهر في الفكر الإسلامي الصوفي : ما يسمى « بوحدة الوجود » وهو مفهوم يعطى تصور اتصال روح الإنسان بالله تعالى .. ثم اتحاده به . وعندئذ يحل الله في الإنسان ، أو تتحد روحه بذاته جل جلاله . وفي مقدمة أصحاب « وحدة الوجود » في الفكر الإسلامي محيي الدين محمد بن عربي . وفي تفسيره للقرآن الكريم : الكبريت الأحمر .. يكشف عن هذه الوحدة الشاملة فيما يفسر به قول الله تعالى : « والله المشرق والمغرب ، فاينما تولوا فثم وجه الله ، ان الله واسع عليم » (٧) ..



● تحديات الفكر الوثني الإغريقي :

أما تحديات الفكر الوثني الإغريقي فقد خلفت في التراث الفكري الإسلامي عدة مشاكل . أهمها :

مشكلة العقل والوحي . ويقصد بالعقل ما أتى إلى المسلمين عن طريق نقل العلوم إلى اللغة العربية : من فلسفة الإغريق في أصل الوجود ، وعلته الأولى وبالأخص ما أثر عن أفلاطون وأرسطو .

والفارابي في كتابه : « نصوص الحكم » : حاول التوفيق بين خصائص الوحي للرسول عليه السلام ، وما يصل إليه الفيلسوف بسبب تجرده عن التأثير بماديات الحياة : إلى الحكمة والصواب في الرأي . ولكن رغم دقة المحاولة العقلية للتوفيق عنده فإنه لم يوفق إلى إزالة التناقض بين الوحي كعمل إلهي واختيار من الله للإنسان الموحي إليه .. والحكمة كمستوى إنساني يصل إليه الإنسان بمجهوده البشري وجهاده لنفسه .

.. وكذلك مشكلة الشرع والعقل ، ومدى ما يصل إليه العقل البشري

من إدراك الحسن والقبح ، مستقلا عن الشرع ، وما يترتب على إدراكه من وجوب التكليف بما يذهب إليه الشرع قبل التبليغ للرسالة ، أو في غيبة هذا التبليغ . وتعرف هذه المشكلة في المدرسة الاعتزالية باسم : الحسن والقبح العقليين .

.. وكذلك مشكلة الصلاح والأصلح ، أو مشكلة العدل الإلهي . وهي تنجّه إلى أن العقل البشري يصل بنطقه إلى وجوب الأصلح على الله . إذ في تحقق الأصلح للإنسان يتحقق العدل الإلهي . وتسمى المعتزلة - من أجل احتضانهم لفكرة العدل - باسم أهل العدل . لأنهم يحكمون العقل في تحديد الصلاح ، وتحديد الأصلح ، ولكنهم يتجاهلون : أن التجربة مع الإنسان الأول ، وهو آدم ، في الجنة أتت بعدم استطاعة العقل : كشف الأصلح له . وإلا : فقيم الندم إذ يقول هو وحواء ، متضرعين إلى المولى جل جلاله : « **قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** » (٨) . فاعترفا بالخطأ والمعصية ، ولم يكن العقل واقيا لهما إذ ذاك من الوقوع في الخطأ ، فضلا عن هدايتهما إلى الأصلح لهما .

.. وقد أخذت مشكلة : « واجب الوجود » فراغا كبيرا في مؤلفات علم الكلام الإسلامي .. وفي الفلسفة الإسلامية . وهي مشكلة تلقفها بعض فلاسفة المسلمين المشائين على أنها سند لدعوة الإسلام إلى الوحدة في الألوهية ، التي واجهت بها الدعوة الإسلامية : الوثنية المادية بمكة ، وجعلتها الضمان لعودة الصفاء إلى رسالة إبراهيم وإسماعيل ، ولتصحيح الرسالة الإلهية في تاريخها الطويل من تشويه الشرك والإلحاد .

ومفهوم « واجب الوجود » - كما هو في فلسفة أرسطو - يسيء في نقله : إلى الله سبحانه وتعالى ، كما يحدد القرآن الكريم : صفاته ، جل وعلا . كما يسيء إلى المؤمنين به في تصورهم إياه . فواجب الوجود في الفلسفة الأرسطية يطلق على العلة الأولى ، وهي موجود يعشق لكماله . ولكن ليست له فاعلية في غيره ، فضلا عن أن يكون خالقا له . وكل ما يعطيه لتحديد ذاته : أنه واحد من كل وجه : في التصور .. وفي الواقع . فليس

متعددا في ذاته .. وليس مركبا من أجزاء : حقيقية أو في التصور . وعن هذا التحديد لذات واجب الوجود في الفلسفة الأرسطية وقبوله لدى بعض المسلمين نشأت مشكلة الصفات لله في تصور المسلمين لذاته : هل الصفات لله هي عين ذاته ؟ .. أم هي غيرها .. أم هي لا عينها ولا غيرها .. هل إذا كانت عين الذات ترد إلى صفتي : العلم ، والحياة أولا .. ثم إلى الذات ؟ أم ترد جميعها مباشرة إلى الذات ؟ . وفي الإجابة عن هذين السؤالين يختلف السلف بين مذاهب علم الكلام عن المعتزلة والفلاسفة المسلمين .. ويختلف السابقون في مدرسة الاعتزال عن المتأخرين منهم فيها . ويتعقد التصور الذهني للمسلم العادي : عن الله سبحانه وتعالى .. ويتشعب المسلمون ما بين : صفتين .. وثقة للصفات ، وأصحاب توحيد .

.. وتتصل بفكرة واجب الوجود في الفلسفة الإغريقية : فكرة العقول العشرة .. من العقل الفعال .. إلى العقل المباشر لتدبير الإنسان ، وهو عقل القمر ، وتقبل هذه الفكرة من الفلاسفة المسلمين المشائين ، ويحاولون أن يلائموا بينها وبين ما جاء في القرآن عن خصائص الملائكة من أنهم مقربون إلى الله ، كما جاء في قوله تعالى :

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » (٩) ١٠٠
 وشرحا لهذا القرب من الله - وتوفيقا بين الفلسفة والدين - يجعلون الملائكة عقولا خالصة ، أي جواهر لا تتصل بالمادة ، إلا اتصال تدبير . ويدرجون هذه العقول في تنازلها من العقل الأول ، وهو الله .. إلى العقل الفعال الذي يناط به التسجيل لأعمال الإنسان . فالله عقل .. وكل ملك عقل بعده . كما يدرج أصحاب فكرة الإشراق الأنوار في وجودها عن نور الأنوار بعد أن يطلقوها على الله والملائكة معا .

.. وأصبح بعد هذا التوفيق بين ما وفد من المشرق ، والمغرب .. وبين ما جاء في الإسلام : ثلاث صيغ أمام المسلم . تعبر عن مدلول ديني واحد ، وهي :

أولا : الله الخالق .. والملائكة ، كما يعبر القرآن .

ثانياً : العقل الأول ، وهو الله واجب الوجود .. والعقول الفعالة ، وهي الملائكة ، كما تعبر الفلسفة الإغريقية والقرآن ، بعد التوفيق .

ثالثاً : نور الأنوار ، وهو الله .. والأنوار الصادرة عنه وهي الملائكة ، كما تعبر فلسفة الاشراق والقرآن ، بعد التوفيق .

.. وأصبحنا نقرأ في الثقافة الإسلامية : الله سبحانه .. وواجب الوجود .. والعقل الأول .. والعلة الأولى ، من جانب .

.. الملائكة .. والجواهر الفردة .. والعقول النورانية من جانب آخر . والقرآن لم يرد بواجب الوجود ولا بالعلة الأولى .. كما لم يرد بالجواهر الفردة والعقول النورانية . والمسلم التقليدي في معرفته يرتبط بهذه المصطلحات الدخيلة ، أكثر مما يرتبط بتعبير القرآن الكريم .

ولم يكن لهذا التوفيق من أثر في الصياغة والتعبير فحسب . بل كان له أثر سلبي كبير على تعقيد الفهم لما جاء في القرآن . إذ وضع المسلمين في متاهات جدلية عقيمة لا تنتهي إلا إلى التعقيد وعدم الخروج بحل واضح لأي مشكل .. كما أضعف من حرارة إيمانهم بالقرآن ومن دفعهم إلى العمل به في غير اختلاف وانشاقاق .. وفي غير تبريرات عقيمة ، تحول دون كشف الواقع والسيطرة عليه .

وكتاب « الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي » (١٠) يوضح : تفاهة الفكر الدخيل .. ووثنيته .. وآثاره السيئة على الإيمان بالإسلام .



● التحديات الفكرية والعقائد للقرآن في الحاضر :

.. كان وضع المسلمين فيما مضى ينطوي على سعة في دائرة الإيمان بالإسلام .. وعلى عمق في الارتباط به ، رغم الخلافات السياسية التي مزقتهم إلى مجموعات تختلف حول « الإمامة » العليا ، .. وفي وضع شروط خاصة بها تعبر عن الفجوة بين المصالح الخاصة بينهم : ورغم تفرقهم إلى

(١٠) للمؤلف .

طوائف .. ومذاهب ، وتفاوتهم في مدى شد الإسلام إلى ما تراه كل طائفة .. وإلى ما يصدر عنه كل مذهب من رأى .

إذ العوامل التي مهدت لوضع المسلمين اليوم في حاضرهم كانت عوامل قاسية في اقتلاع جذور الإيمان بالإسلام من مجتمعاتهم .. ومن محيط حياتهم .. ومن معاملاتهم .. ومن قضائهم .. ومن توجيههم .. ومن سلوكهم .

.. كان المسلمون منقسمين قبل اليوم . ولكن انقسامهم لم يصل إلى نسيان المسؤولية الجماعية التي توجب التعاطف والتضامن فيما بينهم .. ولم يصل كذلك إلى اللامبالاة التي وصل إليها أمر المسلمين اليوم في صلات مجتمعاتهم : بعضها ببعض .

.. لم يكتف الاستعمار الأجنبي في الحاضر بوضع فواصل غير طبيعية ، عندما قسم المسلمين إلى مجتمعات . ودول .. وسلطنات . بل وضع الأساس في التقسيم : الإمكانيات الاقتصادية ، والبشرية التي يريد أن يستنزفها في شره ، وفي غير اعتبار بشري لما يستخدمه منها في أرض المسلمين وبلادهم .. كما راعى في هذا التقسيم : الاتفاق والتراضى بين المستعمرين العديدين على توزيع هذه الإمكانيات بينهم ، كما اتفقوا جميعاً على تعددهم — على أسلوب العمل لاستغلال هذه الإمكانيات .. إلى أقصى مستوى فيها وهو إضعاف الإيمان بالإسلام بين المسلمين ، بإبعادهم عن رؤية إيجابية في الحياة البشرية : إن بالسعى والعمل الجدى .. وإن بالترابط والتضامن فيما بينهم في السراء ، والضراء .



● تحديات الفكر العلماني :

.. وكان في مقدمة الخطوات في أسلوب العمل الاستعماري : دفع « العلمانية » في محيط الحياة الإسلامية . والعلمانية مصطلح يقصد به : أن في الحياة التي يعيشها الإنسان في مجتمعه جانبين . يتميز أحدهما عن الآخر : جانب دنيوي ، وهو جانب الحياة الاقتصادية .. والسياسية .. والطبيعية ، أى التي تتصل بالطبيعة من الأرض وما فيها .. وما تحتها .. وما فوقها ،

من إمكانيات ومصادر للثروة : معلومة أو مجهولة يمكن كشفها . وهذا الجانب ليست له قدسية . بل هو جانب ينطوي على دنس وشر . وهو للدولة . وجانب آخر قدسى وهو جانب الأسرة .. والوجود الإلهي على هذه الأرض ، وهو للكنيسة .

ومنطق هذا المفهوم للعلمانية يقضى بتوزيع الإنسان بين هذين الجانبين ، وإخضاعه إلى توجيهين أو إلى سلطتين مختلفتين ، لهما إلزام التوجيه عليه . .. وهنا نشأت في الفكر الأوربي فكرة الفصل بين الدين والدولة .. أو بين سلطة الدولة وهي السلطة الزمنية أو الدنيوية من جانب .. وسلطة الكنيسة ، وهي السلطة الدينية أو الإلهية من جانب آخر .

وبينما سلطة الدولة تناقش وتنتقد .. إذا بسلطة الكنيسة لا تقبل غير الخضوع والطاعة . وهكذا : هناك دولتان ، أو سلطتان في حياة الإنسان الأوربي في المجتمع الواحد : سلطة الدولة .. وسلطة الكنيسة . الدولة فيما يسمى بالحياة المدنية وهي علاقة الناس في المجتمع بعضهم ببعض . وحكمها هو الحكم المدني .. أو العلماني .. أو الدنيوي .. أو السياسي . والكنيسة فيما يسمى بالحياة الدينية ، وهي حياة الأسرة ، والعلاقات الشخصية : في الزواج ، وفي الأبناء ، وفي الوفاة ، وصلة الإنسان بربه ومعبوده . وحكمها هو الحكم الديني . أو الإلهي .. أو الكنسي . والحكومة الإلهية حكومة معصومة عن الخطأ . وقول البابا لا يرد . لأن الإله الذي حل في الكنيسة .. يحل بدوره فيمن يوجه سلطتها العليا ، وهو البابا .

وقد قامت العلمانية بدور أساسي في إضعاف السلوك الديني في المجتمعات الأوربية . وعلى وجه خاص عن طريق التربية والثقافة . ولولا يقظة الكنيسة في المحافظة على سلطتها وأداء رسالتها في اختصاصها . لتحولت المجتمعات الأوربية جميعها اليوم إلى مجتمعات إلحادية .

.. هذا النمط من التفكير العلماني أقحم نفسه مع سلطة الاستعمار الأوربي في المجتمعات الإسلامية . وتسرب إلى التعليم .. والقضاء .. والتشريع .. وأوجد له من بين المسلمين دعاة يشرعون به ، بجانب سلطة

أصحاب النفوذ الاستعماري ، وفي خدمتهم . وأخذت الحياة في المجتمع الإسلامي تتشعب إلى : تعليم ديني .. وتعليم مدني .. وإلى سلطة قضائية شرعية .. وأخرى مدنية .. وإلى تشريع شرعي في الأحوال الشخصية .. وآخر مدني في المسائل المدنية ، والجنائية ، والدستورية ، والعلاقات الدولية .

واشتد سند التفكير العلماني في المجتمعات الإسلامية ، وطغى بذلك ما يسمى بالجانب المدني على الجانب الإسلامي . وانتهى الأمر في عهد الحكم الوطني بعد استقلال المجتمعات السياسية إلى إلغاء القضاء الشرعي .. والتضييق على فقه الأحوال الشخصية .. ومحاولة مساواة المرأة بالرجل في الميراث ، إسهاما فيما يسمى : « حركة تحرير المرأة » التي تعد ظاهرة بارزة في النصف الثاني من القرن العشرين ، كما اشتد النقد لمبادئ الإسلام . في وسائل الإعلام المختلفة ، وفي الكتب .. والدوريات .

وأصبح الفصل بين الدين الذي هو الإسلام .. والدولة في أي مجتمع إسلامي : حقيقة قائمة . بحجة أن مجال الدين ، وهو الإسلام ، يختلف عن مجال الدولة . وأصبح شعار : الدين لله .. والوطن للجميع : شعاراً سائداً في المجتمعات الإسلامية ، بالأخص بعد استقلالها سياسياً مما يسمى بالاستعمار الأوربي .

فهل الإسلام يرى في حياة الإنسان مجالين لسلطتين مختلفتين ؟ .

وهل الإسلام يرى دنس المادة وشرها حتى يمكن لهيئة غير دينية تتولى شؤونها ؟ .

وهل الإسلام يرى في المجتمع البشري حكومة إلهية معصومة عن الخطأ ، تجب لها الطاعة والاستسلام في غير شوري ، وفي غير إبداء رأي ؟ .

وهل كانت قيادة المجتمع على عهد الرسول عليه السلام بعيدة عن أي خطأ ؟ ولماذا كان عتاب الله لرسوله فيما اتجه إليه في شأن أسرى بدر ، في قول الله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ،

تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم)) (١١) . .

إن فكرة العلمانية تواجه إذن الإسلام في مجتمعه ، وتحمله على قبول ما قبلت به الكنيسة في المجتمع الأوربي . والعلمانيون في المجتمعات الإسلامية يفرضون عليها قبولها في التخطيط والتطبيق . والساسة في المجتمعات الإسلامية يحاولون أن لا يسمعوا كلمة : الإسلام ، في شأن نظام حكم هذه المجتمعات .

والإسلام بمواجهة العلمانية له .. وبدفعها إياه على هذا النحو : يتخلف رويداً .. رويداً عن الظهور في مجتمعاته ، وبين شعوبه . إذن لا بد أن يكون هناك توضيح إسلامي لوضع الإسلام في حياة المسلم — وفي نظراته لطبيعة الإنسان .. وفي تقديره للمادة .. وفي مدى توجيهه في تنسيق مع طبيعته الإنسانية ، وفي ملاءمة مع متع الحياة المادية . لا بد من توضيح إسلامي^(١٢) لهذا .. وغيره ، يأخذ طابع الدفاع ، ولون علم الكلام الإسلامي . وعندئذ يكون مثل هذا التوضيح امتداداً لعلم الكلام عندما واجه تفكير الغرب والشرق في دينه .. وفلسفته .



● تحديات الفكر الاستشراقي :

ثمة رافد آخر من الفكر الدخيل في حاضر المجتمعات الإسلامية ، يساعد العلمانية على يسر القبول ، والتمكن في توجيه المسلمين . وهو تحد آخر للإسلام . وهذا الرافد الآخر هو الفكر الاستشراقي . أى اتجسأ المستشرقين في بحث التراث الإسلامي والمبادئ الإسلامية . وهو فكر عمل الاستعمار على قيامه .. ونشره .. وتوطينه في البلاد الإسلامية . نعم قد تكون هناك بحوث للمستشرقين تستحق الاهتمام والإعجاب . ولكنها قليلة بالنسبة لبحوثهم الأخرى التي تستهدف تشكيك المسلمين في دينهم ، وتحاول أن تخلخل الصلة بين المسلمين وإسلامهم .

(١١) الأنفال : ٦٧ ، ٦٨

(١٢) من الكتب التي تعالج هذا الموضوع : للمؤلف : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي .. ورسالة : العلمانية والإسلام : بين الفكر والتطبيق .

.. هي بحوث فيها : التجرد في البحث ، وسلوك المنهج العلمي فيها .
ولكن معظمها تكرر لاتهامات الماديين المشركين على عهد القرآن :

.. فيدعون مثلاً : أن القرآن ليس وحياً من الله . وأن الرسول عليه
السلام أله . وقد أثار مشركو مكة هذا الادعاء ، فيما يحكيه الله
سبحانه وتعالى : « أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله
ان كانوا صادقين » (١٢) ..

وقد نقل عنهم هذا الادعاء كتاب الشعر الجاهلي فيما يرويه من أن
الرسول صلوات الله عليه : عاش في فترة مزدهرة من الحضارة الإنسانية
في شبه الجزيرة العربية ، وهي حضارة سياسية ، واقتصادية ، وتأثر بها ،
وكان القرآن تعبيراً عما تأثر به منها .

.. ويدعون أيضاً : أن الرسول عليه الصلاة والسلام نقل ما في قرآنه
عن أهل الكتاب ، على نحو ما ادعى المشركون الماديون في مواجهته صلى الله
عليه وسلم ، فيما يقصه قول الله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما
يظلمه بشر ، لسان الذي يلحدون (أى يجيدون ويعدلون عنه) إليه اعجمي
وهذا لسان عربي مبين » (١٤) ..

.. وقوله : « وقال الذين كفروا ان هذا الا فك افتراه واعانه عليه قوم
آخرون ، فقد جاءوا ظلماً وزوراً » (١٥) ..

.. وقوله : « انى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه
وقاؤا معلم مجنون » (١٦) ..

وكما اتهم هؤلاء المكيون الماديون : بأنه — عليه السلام — في تعلمه
من الآخرين لم يكن طبعياً في تفكيره .. بل كان مجنوناً وغير مستقر ذهنياً :
فيما يستمع ، ويتعلم .. كذلك عندما ينسب المستشرقون إليه صلى الله عليه
وسلم : أنه تعلم من أهل الكتاب : يقولون أيضاً : إنه أساء استخدام
ما تلقنه .. ولم يستطع أن يستوعبه بعقله .. وبالتالي كان مشوشاً في التعبير
عنه في قرآنه . ويضربون المثل على ذلك بمسألتين اختلف فيهما القرآن
عن مسيحية الكنيسة :

(١٤) النحل : ١٠٣
(١٦) الدخان : ١٣ ، ١٤

(١٣) الطور : ٣٣ ، ٣٤
(١٥) الفرقان : ٤

المسألة الأولى : مسألة التثليث .. والوحدة في الألوهية . فيقولون : إن محمداً لم يستطع فهم التثليث ، ولذا قاومه وندد به . ودعا إلى وحدة الألوهية ، على نحو ما يقول الله تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » (١٧) ..

المسألة الثانية : ألوهية المسيح . فيدعون كذلك : أنه (أى محمداً عليه السلام) لم يرق إلى مستوى الرسالة ، وإلى مستوى المسيح . ولذا لم يفهم ألوهيته . فبقاؤه في المستوى البشرى حال دون تقبله الوضع الصحيح لعيسى . وقد ظهر غضبه على تأليه المسيح فيما يعبر عنه قرآنه في قول الله تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » (١٨) .. ثم في قوله : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ، كأننا بآلائه انطمس ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون » (١٩) ..

اختلاف القرآن عن مسيحية الكنيسة في هاتين المسألتين - وفي غيرها - لم يكن لعامل إنساني لدى الرسول عليه السلام .. أى لم يكن لقصور أو تشويش في تفكيره ، كما يدعى هؤلاء المستشرقون . وإنما جزء رئيسي في رسالة القرآن . يتعلق بتصحيح الأخطاء والتحريف الذى وجد عند بنى إسرائيل : من يهود ومسيحيين ، على السواء . ويشير إلى رسالة القرآن من أجل هذا التصحيح قول الله تعالى : « ان هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون . وأنه لهدى ورحمة للمؤمنين . أن ربك يقضى بينهم بحكمه ، وهو العزيز العليم . فتوكل على الله ، انك على الحق المبين » (٢٠) .. كما يشير القرآن إلى أخطاء التحريف للكتاب الذى جاء به موسى من جانب بنى إسرائيل في قول الله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره (والخطاب هنا للمكيين الماديين) إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » (٢١) .

(١٨) المائة : ٧٢

(٢٠) النمل : ٧٦ - ٧٧

(١٧) المائة : ٧٢

(١٩) المائة : ٧٥

(٢١) الأنعام : ٨١

(والخطاب الآن لبني إسرائيل . أى أن كتاب موسى لم يبق - كما كان - نوراً وهدى للناس ، بسبب إظهار بعضه وإخفاء الكثير منه . ولذا كان هنا مكان لرسالة القرآن ، التي هي تصديق لكتاب موسى في أصله) .. والآية إذ جاءت الآن لتأنيب الماديين المكيين على اتهامهم الفج ، فإنها أيضا في الوقت نفسه أبرزت السبب في نزول القرآن ، بعد التوراة ، وهو تحريفها الذي باشره علماء بنى إسرائيل .

.. ثم يتلقف المستشرقون - زيادة على تكرارهم لتهم الماديين المكيين بالنسبة للقرآن .. أو بالنسبة للرسول عليه السلام - أخطاء في أفهام بعض المسلمين للقرآن .. أو يحاولون هم استنتاج ما يبعد استنتاجه من ظواهر الآيات القرآنية .

.. فيتلقفون مسألة : « النسخ » في القرآن مثلا . ويدعون أن القرآن مضطرب فيما يقوله ، لأن محمداً يقع تحت تأثيرات مختلفة ومتضاربة . ويذكرون كثيراً من الأمثلة التي يوردها هذا البعض من علماء المسلمين للاستشهاد على نسخ القرآن : بعضه لبعض .

ولو عرف هذا البعض من العلماء - وكذلك لو أخلص المستشرقون في نواياهم في عرض الإسلام - أن القسم المدني من القرآن نزل منجماً ، حسب تطور مجتمع المدينة وظهور مشاكله واحتياجاته : لأدركوا جميعاً : أن تكوين المجتمع لا يتم نقله من وضع .. إلى آخر على النقيض منه : دفعة واحدة .. وأن التطور النفسى عامل رئيسى فى تماسكه وفى بقاء أفراده فى نطاق هدفه المعين . والتطور النفسى لا يقبل الفجأة .. ولا يلتئم مع التحديات النهائية فى أول طريق التكوين . وجاء التعبير عن نزول القرآن منجماً فى قول الله تعالى : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلاً » (٢٢) ..

وكذلك لو عرف هذا البعض : أن النسخ ليس فى رسالة أى رسول . وإنما هو بين رسالات الرسل ، ككل . كالذى وقع بين رسالة إبراهيم ..

وموسى .. ومحمد ، عليهم السلام في حل العمل يوم السبت ، وفي تحريمه . على نحو ما يصوره القرآن في قول الله تعالى : « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين . إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ، (أى إنما حرم العمل يوم السبت على بنى إسرائيل لأنهم هم الذين عصوا الله فيما أمرهم به في قوله : « ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدةً وقلنا لهم لا تصدوا في السبت » (٢٦) (أى لا تتجاوزوا الأمر في شأنه ، وهو عدم العمل فيه) وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » (٢٤) .. فامر الرسول محمد عليه السلام باتباع إبراهيم - دون موسى - في حل العمل يوم السبت . وإذن ما جاء في القرآن هو نسخ : لما جاء في التوراة في هذا الشأن ، وعودة بالبشرية إلى ما كان عليه إبراهيم .

ولذا كان من أسباب رفض القرآن من جانب بنى إسرائيل هو نسخه لبعض ما جاء في التوراة . ويشير إلى ذلك قول الله تعالى : « واذا بدلنا آية مكان آية (أى أتينا في القرآن بآية تدل على حكم .. بدل آية في التوراة تدل على حكم مغاير له) والله أعلم بما ينزل قالوا (أى قال ذلك أهل الكتاب من بنى إسرائيل ، لأنهم هم الذين لهم كتاب ينطوى على آيات الأحكام ، وليس المشركون المكيون) إنما أنت مفتر ، بل أكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » (٢٥) ..

.. ويحاولون إبراز ما ييسى بالتضارب فيما يريداه القرآن ، أو فيما يأمر به وينهى عنه ويعرضون للجبر .. والاختيار ، ويذكرون الآيات التي يؤخذ من ظاهرها : وجود الجبر وعدم المشيئة ، بالنسبة للهداية على الأخص .. والآيات الأخرى التي تترك أمر الكفر والهداية إلى الإنسان . ويشيرون إلى مذهب الجبريين .. وإلى المذهب الآخر ، وهو مذهب المعتزلة في اختيار الإنسان . ولكنهم لا يشيرون إطلاقاً إلى الدوافع السياسية في أمور الخلافة الإسلامية التي دفعت إلى إعلان مذهب الجبر في عهد الأمويين .. وإلى

(٢٤) النحل : ١٢٣ ، ١٢٤

(٢٣) النساء : ١٥٤

(٢٥) النحل : ١٠١ ، ١٠٢

مذهب الاختيار على أيام حكم العباسيين . والسياسة في استخدامها الدين لا تتركه وحده يقول ما يريد . وإنما تحمله - على يد نفر ممن ينتسبون إليه - على قول معين . هو القول الذي تحتاجه السياسة في وجه خصومها في الحكم ، تأييداً لاتجاهها فيه . ولكنهم يبتغون الفتنة .. ويبتغون تأويله . كما صنع أسلافهم من أهل الكتاب ذلك ، وحكاه الله في قوله تعالى : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولوا الألباب » (٢٦) ..

ولو اتضح لهؤلاء ولغيرهم أن الجانب النفسى في القرآن بالنسبة للرسول عليه السلام كان عنصراً هاماً في نجاح الدعوة به : لترددوا كثيراً فيما يتهمون به . فعندما يقول الله لرسوله الكريم صلوات الله عليه : « انك لانتهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين » (٢٧) . يقول له ذلك - ناسبا الهداية إلى الله وحده - ليطمئنه نفسياً بأن عليه صلى الله عليه وسلم - فقط : مباشرة الدعوة بين أقربائه ، ولكنه لا يتحمل نتائجها عنهم . فسبحانه هو الذي يقول له كذلك في هذا الشأن : « ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون » (٢٨) .. دفعا لما قد يجول بنفسه من خواطر الأسف ، بسبب عدم نجاح دعوته بين أقربائه .. وتشجيعاً له على السير نحو الأمام في رسالته .

أما المسؤولية الشخصية عن الإيمان ، والكفر .. وعن العمل الصالح ، والسيء ، فهي حقيقة بارزة في القرآن . لأنها قائمة على الحرية الكاملة في قبول الإيمان بالإسلام ، أو في رفضه : « **وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** » (٢٩) ..

« **ومن كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحاً فلانفسهم يمهدون** » (٣٠) .. ولا يمكن أن يكون الإنسان مسؤولاً عن كفره إلا إذا كان ذا مشيئة فيه . وآيات القرآن التي تظهر نسبة الإيمان والكفر إلى الله تستهدف هدفين :

(٢٧) القصص : ٥٦

(٢٩) الكهف : ٢٩

(٢٦) آل عمران : ٧

(٢٨) النحل : ١٢٧

(٣٠) الروم : ٤٤

الهدف الأول : أن مشيئة الله تعين الإنسان على الهداية ، إذا أقبل عليها أو عندما يقبل عليها ، ولا تعينه عليها إذا أعرض عنها : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » (٢١) ..

الهدف الثاني : إحاطة الداعى والدعوة بجو النجاح وعدم الخذلان . وذلك بإبعاد : أن يكون الإيمان .. أو عدم الإيمان من مستتبعات النشاط في الدعوة والداعى إليها . وهنا ليس على الداعى إلا أن يقوم بواجبه في شرح الدعوة ، دون انتظار لما تسفر عنها نتائجها . ويكل النتيجة لله وحده ، ويعتمد عليه في النجاح أخيراً : « فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، واليه المصير » (٢٢) ..

.. كما يتلقف هؤلاء المستشرقون ما قد يوجد في بعض كتب المتأخرين في الفقه من استنتاجات افتراضية ، ربما لا تقع في الحياة العملية للإنسان . ولكن يفترض الفقيه - وهو منعزل عن أحداث الحياة .. ومستغرق في خيال التصور - وقوعها ، ويدخلها في دائرة استنتاج الأحكام الفقهية ، كما تذكر بعض كتب الفقه مثلاً : الأحكام التى تترتب على زواج إنس بجنية .. أو زواج جن بإنسية : فى الطلاق .. وفى الميراث .. وفى النسب ومستقبل الأولاد . وكما تذكر هذه الكتب أيضاً : الحكم الشرعى : من بطلان .. أو كراهية ، فى خطيب يصعد المنبر يوم الجمعة .. أو يؤم المصلين فى صلاتها ، وهو يحمل قرينة من الفسء ..

وفى سرد هؤلاء المستشرقين لمثل هذه الأحكام الافتراضية فى الفقه يقدررون : أن يشيروا إلى الانعزالية أو البعد فى أحكام الفقه الإسلامى عن واقع الحياة .. أو عن مدى إهماله فى معالجة القضايا والمشاكل التى تعترض حياة المسلمين فى اختلاطهم بحضارات أخرى .. وفى عهود يتقدم فيها العلم والتطبيق الصناعى ، ويصل فيها الإنسان إلى مستوى السيطرة على الأجواء ،

بعد أن سيطر على الأرض والبحار .. يقصدون : إما إلى إبراز جمود الفكر الإسلامي أو تخلفه .. أو عدم صلاحية الشريعة الإسلامية لدفع المسلمين نحو التطور .. والخروج من الركود الذي يعيشون فيه .

وفي جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية كان يقوم في العشر سنوات الأخيرة أستاذ بريطاني - وهو من كبار المستشرقين . وأكثرهم اعتدالا ، وهو الأستاذ « جب » بتدريس هذا النوع من الفقه الافتراضي ، باعوة من الجامعة ، وعلى نفقة اعتماد مالي كبير لتدريس حضارة الشرق الأدنى وحركاته الإسلامية المعاصرة ، للطلاب الأمريكيين .. والوافدين من أنحاء العالم .

ومثل هذا العمل للمستشرقين هو تحد آخر للإسلام في وقتنا المعاصر ، يجب أن يواجهه بتتبع وبيان ما فيه من فساد .. ومغالطة .. وخطأ .. وتشويش . على نحو ما صنع المرحوم الإمام محمد عبده في رده على المستشرق الفرنسي : « رينان » في كتابه : « الإسلام والنصرانية » (٣٣) . ومن الأسف أن عمل هؤلاء المستشرقين تعدد .. وتنوع .. واتسع إلى درجة أنه يصعب على القلة المفكرة من علماء المسلمين أن تواجهه . ثم في الوقت نفسه له أثر سلبي .. ونافذ .. ومستمر ، على المثقفين المسلمين ، لأن تنظيمهم لبعض المراجع الإسلامية ، ومنهجهم في التبويب ، والترتيب ، للفكر ، أو للكتب : من شأنه أن ييسر الرجوع إلى المفاهيم الإسلامية ، وإن كانت تتطوى على تحريف ، أو إساءة متعمدة في شرحها . فدائرة المعارف الإسلامية - مع ما فيها من أغلاط وتحريف متعمد - تدفع إلى من يبحث عن بعض المراجع الإسلامية المعاصرة .. إلى الرجوع إليها . وقلما - من تعود الرجوع إليها - يكون على علم بالمفاهيم الإسلامية من مصادرها ، وبالأخص من القرآن الكريم .



🌐 تحديات الفكر الطبيعي :

وبجانب ما وفد من الغرب إلى المجتمعات الإسلامية في ظل الاستعمار

(٣٣) وعلى نحو ما جاء في تقييد ادعاءات المستشرقين في كتاب : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي .

من تحديات العلمانية .. والاستشراق : وقد أيضاً إلى هذه المجتمعات تحديات الفكر الطبيعي . وهو الفكر الذى يرى علل الأشياء فى ذاتها .. ويخضع أحداثها إلى استتباع الأسباب الطبيعية لمسبباتها . والفكر الطبيعي يعترف بالتجربة المادية وحدها كوسيلة للعلم . ومن أجل ذلك ينكر أى مصدر آخر له ، كغيب السماء وما يأتى به الوحي منه .

.. وهنا وجد تحدى : ما يسمى بمشكلة العلم والدين . فحسب مقياس العلم فى اتجاه الفكر الطبيعي يعتبر الدين أسطورة .. أو خرافة غيبية . أى لا يعتمد فيما يقول على تجربة الحس ، ولا على وسائل الاختبار العلمية ، والملاحظة لمزور التجربة فى مراحلها العديدة . وفعلا يتحدث الطبيعيون عن نوعين من العلم : أحدهما تجربى ، وهو العلم الطبيعي وهذا هو النوع المقبول . وثانيهما غيبى ، وهو الدين . وهو لا يعتمد به ، كما لا يعتمد عليه فى بناء المجتمع وسلوكه . وإذن يردد الطبيعيون ما كان يردده المشركون الماديون على عهد الرسالة ، على الرسالة ، على نحو ما يقص قول الله تعالى : « ومنهم من يستمع اليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقسراً ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، حتى إذا جاءوك يجادلوك يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الأولين » (٢٤) ..

.. ومحمد إقبال - فى كتابه « إعادة بناء الفكر الإسلامى » .. يرى فى قصر الطبيعيين : العلم ، على ما تأتى به نتائج التجربة المادية وحدها .. أى على ما يأتى به الحس وحده : نوعاً من القصور فى تحديد وسائل العلم .. أو نوعاً من التحيز فى اختيار الحس وحده ، كوسيلة يؤخذ بها ويعتمد عليها . فما يأتى به الدين كذلك من علم ، فإيمان به : هو تجربة كذلك . ولكنها تجربة نفسية ، تخضع للممارسة الداخلية للإنسان . أى تخضع لجهاد النفس وترويضها . فكلما جاهد الإنسان شهوات نفسه ووقف فى سبيل هواها : كلما زاد إدراكه وضوحاً وعمقاً للطريق السوى فى الحياة .. وكلما زاد إيمانه قوة بالله وبرسالته . ونهاية هذه التجربة النفسية تتجلى فى الصفاء النفسى .. وفى الإلهام البعيد عن التأثير بمتع الحياة .. بتجلى فى مستوى معين

من الزهد أو التصوف .. وهو مستوى التجرد في الحكم ، والغنى النفسى بالقناعة عن ماديات الحياة .

والرؤية العلمية التى يراها صاحب هذه التجربة أدخل إذن فى معنى : العلم واليقين . لأن تجربة الحس لا تمر وحدها إلى نتائجها . وإنما تصحب هذه التجربة ملاحظة الملاحظ لها .. أى ملاحظة إنسان يرقبها ويتتبع خطواتها . وهذا الإنسان فى مراقبته إياها خاضع للغفلة .. وللتأثر بالجو الذى هو فيه .. وللتقلب فى المزاج والصحة إلى حال .. ونقيضه ، أثناء قيامه بالملاحظة . والأخطاء العلمية هى أخطاء : إما فى ذات التجربة .. أو فى ملاحظتها من الإنسان . والتطور العلمى ما هو إلا طريق يقوم على تصحيح الأخطاء التى تقع فى التجارب المادية أو الحسية ، والتوصل إلى نتائج جديدة قد تعدل غداً ، أيضاً . ومع ذلك لا يتلافى التطور العلمى جميع الأخطاء . ويستحيل عليه أن يتلافها . لأنها من الإنسان المعرض للشيء .. ونقيضه : فى حياته ، وفى ممارسته للمراقبة والملاحظة .

والتطور العلمى ينطوى فى ذاته على اعتراف بعدم تكامل العلم .. أو بعدم وصوله إلى اليقين النهائى .

« وإقبال » فى توضيحه للتجربة الدينية – كوسيلة أخرى بجانب التجربة المادية – أخذ من الفيلسوف الألمانى « هيغل » .. طريقه فى الوصول إلى وحدة الألوهية .. وكيفية وجود العالم عنه .. واتصاله به .. وهو طريق الدعوة .. ومقابل الدعوة .. والجامع بين الدعوة ومقابل الدعوة . أو هو طريق استخدام النقيض فى مجال « الفكرة » . وقد استخدمه « كارل ماركس » فيما بعد : فى مجال المادة أو الاقتصاد ، ليصل منه إلى سيادة البروليتاريا فى حكومة عالمية .

.. وفى الوقت الذى ينكر فيه الطبيعيون القيمة العلمية للدين – لأنه كما يقولون : علم – غيبى ، وليس بحسى – يجعلون علم الاجتماع فى مقدمة العلوم اليقينية . والمجتمع الذى يبحث ، وتحدد قوانينه ، وتوصف بأنها قوانين علمية ، ويتكون منها ما يسمى بعلم الاجتماع : ليس تجربة مادية خالصة . لأن الإنسان الفرد فى المجتمع ، والذى تقع عليه التجربة فى علاقته

بغيره ، والذي قال فيه هؤلاء الطبيعيون : إنه وحدة مادية في ظاهره وباطنه . هذا الإنسان ليس « موضوعا » للفعل والانفعال فحسب .. أى ليس موضوعا قابلا فقط ، وليست له فاعلية . بل هو وحدة تتفاعل مع عالمها الذى توجد فيه . فهى كما تقبل الفعل من الغير .. تعطى الفعل للغير . وهذا معناه : أن المجتمع لا يساوق أية كتلة مادية فى الطبيعة ، تلاحظ عليها التجربة .. وتقنن المراحل التى تمر بها هذه التجربة . لأن الكتل المادية الأخرى : كتل ميتة . والإنسان إن كان كتلة من المادة ، ففيه الحياة . والحياة فى الإنسان هى حركة تصدر .. وحركة أخرى تستقبل .

وأصحاب الاتجاه الطبيعى إذن ليسوا أصحاب تجرد فى الحكم . بل حزبية النفرة من الدين ، والرغبة فى التخلص من سلطة الكنيسة : حملهما على الفصل بين العلم .. والدين . كما حملوا رجال السياسة على الفصل : بين الدين .. والدولة .

والاتجاه الطبيعى فى التفكير هو من التحديات المعاصرة التى لم تلق الآن اهتماما فى الفكر الإسلامى المعاصر (٢٥) من أجل توضيح الإسلام ومبادئه على أساس الوحي الإلهى به . ومحاولة إقبال فى توضيح أن الدين تجربة علمية من نوع آخر ، رغم أنها محاولة ناجحة إلا أنها تقصر عن أن تواجه هذا السيل من تفكير الطبيعيين ، لإبعاد الإسلام عن التوجيه ، وبالأخص عن توجيه الشباب المسلم المعاصر .

* * *

● تحديات الفكر المادى التاريخى :

والفكر المادى التاريخى هو الفكر الذى يجعل كل ظواهر الوجود - وبالأخص تطورات المجتمع البشرى - من المادة . أى من الاقتصاد وحده . فالإقتصاد هو العامل الوحيد المحرك للوجود .. وهو صاحب الخلقية والفعل فى تغيير المجتمعات الإنسانية . والمجتمعات الإنسانية ذاتها مرآة تعكس آثار

(٢٥) كتاب الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى محاولة فكرية أخرى فى دفع التحدى الطبيعى للإسلام .

الأوضاع الاقتصادية فيها . والمجتمعات الإنسانية بدورها ذات التأثير على الفرد : في ذاته .. وفي علاقته بالآخرين .

ويلتمس هذا الفكر من بعض أحداث التاريخ الشواهد على ما يدعى . ويستعين بفكرة النقيض عند هيجل : على توضيح تحول المجتمع من وضع معين .. إلى وضع آخر مقابل له . كتحول المجتمع من وضع الإقطاع في الأراضي والعبيد .. إلى وضع نظام رأس المال في الصناعة .. ثم إلى وضع البروليتاريا في الشيوعية الدولية .

ويقوم هذا الفكر على أساس الإلحاد العلمي ، والعداوة التي لا تقبل المهادنة للدين . وقد عرف هذا الاتجاه في القرن التاسع عشر باسم « السوشياлизм » ، أو الاشتراكية . ثم عرف بعد ذلك باسم الاتجاه الماركسي ، نسبة لليهودي « كارل ماركس » في القرن التاسع عشر . وفي تطبيقه بعد ثورة أكتوبر الحمراء في روسيا سنة ١٩١٧ عرف باسم الاتجاه اللينيني . ويعرف في بعض المجتمعات الإسلامية بأسماء أخرى كالاشتراكية العربية .. أو الناصرية ، أو اليسار العربي ، تسترأ على ما يدعو إليه من تقويض الدين باسم الإلحاد العلمي .

ويعيد هذا الاتجاه في موقفه من اتهام الدين : ما كان يتهم به القدامى من الماديين - كمشركي مكة - الإسلام : من أنه : كهانة .. وأسطورة .. وأضغاث أحلام .. وسحر .

فيحكى القرآن الكريم قول هؤلاء القدامى بشأن القرآن :

« وقالوا أساطير الأولين اكتتبها » (٣٦) ..

« بل قالوا أضغاث أحلام » (٣٧) ..

« ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » (٣٨) ..

.. ونفى القرآن دعواهم إزاء الرسول عليه السلام : بأنه كاهن في قول الله تعالى : « فذكر فما أنت بنعمة ربك (وهي القرآن) بكاهن ولا مجنون » (٣٩) ..

(٣٧) الانبياء : ٥

(٣٩) الطور : ٢٩

(٣٦) الفرقان : ٥

(٣٨) هود : ٧

.. ولكن هذا الاتجاه المادى التاريخى يعيد هذا الموقف فى تعبيرات أخرى . فيصف الدين مثلا : بأنه أفيون الشعوب . أى مخدر . كما يصنفه بالأسطورة .. وبأنه غيبى لا يحمل طابع المعرفة الصحيحة . والقائمون على تنفيذ هذا الاتجاه فى مجتمعاتهم يصفون كل من ينقد نظام الحكم القائم عليه : بأنه مجنون ، ويحتجزونه فى أمكنة المجانين . وقد حكم المكيون على رسول الله عليه السلام بسبب دعوته إلى القرآن : بأنه مجنون :

« وقالوا يا ايها الذى نزل عليه الذكر (أى القرآن – ويعنون محمداً عليه السلام –) انك لجنون . لو ما تاتينا باللائكة ان كنت من الصادقين » (٤٠) .

والقرآن كرسالة لله هو فى الدرجة الأولى : نقد لأوضاع المجتمع قبل الرسالة .. وفى الوقت نفسه : بناء لمجتمع إنسانى جديد .. بدلا من مجتمع الوثنية المادية .

.. وجمال الدين الأفغانى فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر فى رسالة « الرد على الدهريين » : كما تكفل بالرد على أصحاب الاتجاه الطبيعى فى الفكر .. تكفل أيضا بالرد على هذا الاتجاه الماركسى (٤١) الذى كان معروفا إذ ذاك : بالسوشيالزم .. أو بالاشتراكية .

.. وفى رد جمال الدين الأفغانى على أصحاب هذا الاتجاه تناول ثلاث نقاط :

الأولى : من هم الاشتراكيون . والشيوعيون ، فى الغرب ، والشرق ؟ .

الثانية : ما بين : مزدك .. وماركس .

الثالثة : أوجه المشاركة فى الحديث .. والتقديم .

فى النقطة الأولى : يقول :

« هذه الطوائف تتفق فى سلوك الطريقة الدهرية (وهى : الإلتحاد

(٤٠) الحجر : ٦

(٤١) وقد وردت فى صورة مستقلة رسالة « تهافت الناس المادى التاريخى ، بين النظر والتطبيق » من مؤلفاتنا – على هذا الاتجاه .

بالدين .. والإيمان بالطبيعة وحدها) . زينوا ظواهرهم بدعوى : أنهم
سند الضعفاء .. والمطالبون بحقوق المساكين والفقراء .

« وكل طائفة منها ، وإن لونت وجه مقصدها بما يوهم مخالفتها لمقصد
الأخرى ، إلا أن غاية ما يطلبون : إنما هو رفع الامتيازات البشرية كافة ..
وإباحة الكل : لكل واشتراك الكل : في الكل .

« وكم سفكوا من دماء .. وكم هدموا من بناء .. وكم خسروا من
عمران .. وكم أثاروا من فتن .. وكم أنهروا من فساد . كل ذلك : سعيًا
في الوصول إلى هذه المطالب الخيثة (الإباحة .. والاشتراك) . وجميعهم
على اتفاق : في أن جميع المشتبهات الموجودة على سطح الأرض منحة من
الطبيعة .. وفيض من فيوضها . والأحياء في التمتع بها سواء . واختصاص
فرد من الإنسان بشيء منها دون سائر الأفراد (يشير إلى الملكية الخاصة)
بدعة في شرع الطبيعة السيئة ، يجب محوها والإراحة منها (٤٢) .

● موقفهم من الدين .. والملكية :

ومن مزاعمهم : أن الدين .. والملك عقبتان عظيمتان ، وسدان منيعان
يعترضان بين أبناء الطبيعة ، ونشر شريعتهما المقدسة : (الإباحة ..
والاشتراك) . وليس من مانع أشد منهما . فإذن من الواجب على طلاب
الحق الطبيعي : أن ينقضوا هذين الأساسين ويبيدوا الملوك .. ورؤساء
الآديان . ثم يعمدون إلى الملاك ، وأهل السعة في الرزق . فإن دانوا لشرع
الطبيعة فخرجوا عن الاختصاص (أى الملكية وتنازلوا عنها) فقتل .. وإلا
أخذ بأعناقهم قتلا ، وبأكظامهم خنقا ، حتى يعتبر بهم من يكون أمثالهم .
فلا يلوون رؤسهم كبراً على الشريعة المقدسة (وهى شريعة الطبيعة) ولا
تزور أعناقهم عصياناً لأحكامها (٤٣) .

● منافذ تسربهم :

« نظر أبناء هذه الطوائف في وجوه الوسائل لبث أفكارهم .. والإفضاء

(٤٢) كتاب الرد على الدهريين ص ٩٠ ، الناشر دار الكرنك - القاهرة - عمارة رمسيس -
ميدان رمسيس باب الحديد : تحقيق الشيخ محمود أبو رية .

(٤٣) المصدر السابق ص ٩١ .

بسا في أوهامهم : إلى قلوب العامة (الجماهير) فلم يجدوا وسيلة أنجح في زرع بزور الفساد في النفوس : من وسيلة التعليم : إما بإنشاء المدارس . تحت ستار نشر المعارف ، أو بالدخول في سلك المعلمين في مدارس غيرهم ، ليقرروا أصولهم في أذهان الأطفال ، وهم في طور السذاجة : فتنتقش بها مداركهم بالتدريج .

« فمن أولئك الدهريين : من همه بناء المدارس ، ودعوة الناس إليها . ومنهم متفرقون في بلاد أوروبا يطلبون وظائف التعليم ، وينالون من ذلك طلبهم . وجميعهم يتعاونون على إذاعة خيالاتهم الباطلة . وبهذا كثرت أحزابهم .. ونمت شيعتهم في أقطار الممالك الأوربية ، خصوصا في مملكة الروسية .

« ولا جرم : أن هذه الطوائف إذا استفحل أمرها ، وقوى ساعدها على المجاهرة بأعمالها : فقد تكون سبباً في انقراض النوع البشري ، كما تقدم ذكره . أعاذنا الله شرور أقوالهم وأعمالهم » (٤٤) .

● ومن هم في الشرق :

« أما منكرو الألوهية ، أعنى الدهريين (الاشتراكيين - الشيوعيين) الذين ظهروا في لباس المهذيين ، ولونوا ظواهرهم بصبغ المحبة الوطنية (القومية) وزعموا أنفسهم طلاب خير الأمة .. فصاروا بذلك شركاء اللص ، ورفقاء القافلة ، ثم تجلوا في أعين الأغبياء : حملة لأعلام العلم والمعرفة ، وبسطوا للخيانة بساطا جديدا . وتولاهم الغرور بما حفظوا من كلمات قليلة ناقصة ، غير تامة الإفادة ، مسروقة من أوهام المبطلين وقتلوا سببهم ، كبراً وعلوا ، ولقبوا أنفسهم بالهادين .. والأدلاء ، وهم في أطباق جهل ، وأوثاق غباوة ، وفي أهب من دنس الرذائل ، ومسوك من قذر الذمائم . فأولئك قوم ، قوى فيهم الظن : بأن العقل وثمرته من المعرفة ينحصران في تبين وجوه الغدر ، وتعرف طرق الاختلاس . وإننى لثقى خجل من ذكرهم ، يدافعنى الحياء عن رواية سيرهم ، وحكاية أعمالهم . فإن مقاصدهم من

(٤٤) المصدر السابق ص ٩١ - ٩٢

الدناءة بحيث لا تخرج عن جيوبهم : يسعون في اقتلاع أساس أمتهم لشهوة بطونهم .. يحدون سفارهم لتقطيع روابط الالتئام بين بنى جنسهم ، لا يتنغون بذلك عوضاً سوى حشو معدهم . وما أضيق مجال تفكيرهم ! .. إلى الآن لم يخط أحدهم خطوة خارج كرشه .. ولم يمد واحد منهم رجليه لأبعد من فراشه . وليس في وسع القلم أن يتحرك في هذا المجال الضيق . غير أنه يمكن أن يقال إنهم : « يياجو » لغيرهم . أى سبيئوا التقليد لهم » (٤٥) .

● بين مزدك - وماركس :

ويقول جمال الدين الأفغانى فى الصلة بين الاثنين : « اتحل مزدك لنفسه لقب : رافع الجور .. ورافع الظلم . وبتزعة من نزعاته قلع أصول السعادة من أرض الفارسيين . نسفها فى الهواء ، وبددها فى الأجواء ، فإنه بدأ تعاليمه بقوله : جميع القوانين .. والحدود والآداب (الأخلاق) التى وضعت بين الناس : قاضية بالجور ، مقررة للظلم . وكلها مبنى على الباطل . وإن الشريعة الدهرية المقدسة لم تنسخ حتى الآن . وقد بقيت مضمونة فى حرزها ، عند الحيوانات والبهائم ..

« أى عقل ، وأى فهم يصل إلى سر ما شرعته (الطبيعة) ؟ .

« وأى إدراك يحيط بمثل ما أحاط به ، وقد جعلت الطبيعة حق : المأكل ، والمشرب ، والبضاع .. مشاعاً بين الآكلين .. والشاربين .. والمباضعين ، بدون أدنى تخصيص ؟ . فما الحامل للإنسان على حرمان نفسه من بضاع : ابنته .. وأمه .. وأخته ؟ ثم تركهن لغيره يتمتع بهن : انقياداً لما يخيئه له الوهم ، مما نسميه شريعة ، وأدباً (أخلاقاً) ؟ .

« وأى حق يستند إليه من يدعى : ملكية خاصة فى مال يتصرف فيه دون سواه ، مع أنه شائع بينه وبين غيره ؟ .

« وأى وجه لمن يحجر على امرأة دخلت فى عقده ، ويحظر على الناس : نيلها ، وقد خلق الذكر للأثى .. والأثى للذكر ؟

« وماذا يوجد من العدل في قانون يحكم بأن المال الشائع — إذا تناولته يد مغتصب بما يسمونه بيعا و شراء .. أو إرثا — يكون مختصا بذلك المغتصب ، ثم يحكم على الفقير المحروم ، إذا احتال لأخذ شيء من حقه والتمتع به : بأنه خائن .. أو غاصب ؟

« فإن كان هذا شأن تلك القوانين الجائرة ، فعلى الإنسان : أن يفك أغلالها من عنقه ، وي طرح كل قيد عقده القوانين والشرائع .. والآداب ، التي لا واضع لها سوى : العقل الإنساني الناقص ، وليرجع إلى سنة الطبيعة المقدسة ، ويقضى حق شهوته من اللذائذ التي أباحتها له : بأى وجه من الوجوه .. ومن أية الطرق ، ويأخذ في ذلك مأخذ البهائم . وعليه أن يقاوم الغاصبين ، المتحكمين في الحقوق : قسرا . أى المالكين للأموال .. والأبضاع ، فيخرجهم عن سوء فعالهم من الغصب .. والجور (أى من حق التملك) .

« فلما ذاعت هذه النزعات الخبيثة بين الأمة الفارسية : تهتك الحياء .. وفشا الغدر والخيانة .. وغلبت الدناءة والنذالة .. واستولى حكم الصفات البهيمية على نفوسهم .. وفسدت أخلاقهم .. وردلت (أى وصلت إلى الخسة) طباعهم . نعم إن « أنو شروان » قتل مزدك ، وجماعة من شيعته . ولكنه لم يستطع محو هذه الأوهام الفاسدة ، بعدما علقت بالعقول .. والتبست نفايتها بالأفكار . فكان علة في ضعفهم ، حتى إذا هاجمهم العرب لم تكن إلا حملة واحدة فانهزموا . مع أن الروم — وهم آقران الفارسيين — نبوا في مجالدة العرب ، ومقاتلتهم : أزمانا طويلة « (٤٦) .

* * *

❶ أوجه المشاركة في الحديث .. والقديم :

ويقول جمال الدين كذلك : « وقد تبين : أن أول تعاليم « النيتشرين » أبطال هذين الاعتقادين :

« أولا : الاعتقاد بالله ..

(٤٦) المصدر السابق ص ٧٧ - ٧٩

« وثانيا : الاعتقاد بالحياة الأبدية (الحياة الأخروية) : وهما أساس كل دين .

« فهؤلاء القوم هم الساعون في نفس بناء الإنسانية ، وتذريته في ذبول السافيات . يطلبون ضعفة أركان المدنية .. وفساد الأخلاق البشرية . ويقوضون بذلك ما رفعه العلم ، وشادته المعرفة . فيهلكون الأمم بإطفاء حرارة الغيرة ، وإخماد ربح الحمية ، هؤلاء جرائيم اللؤم والخيانة .. وأرومات الرذالة والدناءة .. وأحلاس الخسة والنذالة .. وأعلام الكذب والافتراء .. ودعاة الحيوانية العجماء . محبتهم كيد .. وصحبتهم صيد .. وتوددهم مكر .. ومواصلتهم غدر .. وصدقاتهم خيانة .. ودعواهم للإنسانية حباله .. ودعوتهم للعلوم شرك ومكيدة .

« يخونون الأمانة .. ولا يحفظون السر .. ويبيعون الصق الناس بهم بأدنى مشترياتهم .. عبيد البطون .. وأسراء الشهوات . لا يستكفون من المدنية ، إذا أعقبتها عطية . ولا يخرجون من الفضيحة ، إذا تبعنها رضىخة (أى عطية قليلة) . لا علم عندهم بالوقار .. ولا إحساس لهم بالعار .. ولم يبلغهم عن شرف النفس خبر مخبر .. ولا وصل إليهم عن الهمة عبارة معبر ، أو تفسير مفسر . الابن فيهم لا يأمن أباه . والبت لا أمان لها من كليهما » (٤٧) .

« نعم أى حد تقف دونه حركات طبع الطبيعيين (وفي مقدمتهم : الاشتراكيون .. والشيوعيون) .

« قد يوجد بين الناس من تغره نعومة لمس هذه الأفاعى .. وتروقه رقطة جلودها ، وانتظام الرقش فيها ، فينخدع لهم بما يلتبس عليه من أمرهم ، فيصغى لزخرف قولهم ، ويظن : أن هؤلاء القوم من طلاب التمدن (التقدم) والأعوان على الإصلاح ، أو من الراغبين في بث المعارف ، أو المنقبين عن الحقائق .. أو يتخيل : أن منهم من يكون عوناً عند الضيق .. أو عوناً في الشدة .. أو مخزناً للأسرار عند الحاجة . فذلك المغرور بمظاهر

(٤٧) المصدر السابق من ١٠٣ ، ١٠٤

هذه الطائفة لا محالة ييكنى عليه .. ويضحك منه . فالضحك عجا من غروره .. والبكاء حزنا على ضلاله « (٤٨) .

« .. ولما كان نظام الأكوان قد بنى على أساس الحكمة .. ونظام العالم الإنسانى جزء من النظام الكونى : ألهم الله نفوس البشر أن تفرع إلى مقاومة أولئك المفسدين فى أى زمان ظهوروا .. ومدافعة ما يعرض من شرهم ، كما ألهمهم الفرع من الحيوانات المفترسة ، والنفرة من الأغذية السامة ، وأنهض حفاظ النظام المدنى الحقيقى - وهو الدين - لبذل الجهد .. وإفراغ الوسع فى محو آثارهم ، واستئصال ما يغرسون فى تعاليمهم .

« لا جرم أن مزاج الإنسان الكبير (يقصد عموم النوع الإنسانى) بما أودع الله فيه من الشعور الفطرى - وهو أثر الحكمة الإلهية العامة - يسج هؤلاء الخونة ، ولا يحتمل وجودهم فى باطنه ، فيدفعهم ، كما تدفع الفضلات من المعدة ، أو الذئابة من المنخر ، أو النخامة من الصدر . لهذا تراهم وإن حلوا بعض منازل الأرض من زمان بعيد ، وأيدهم بعض النفوس الخبيثة من ذوى الشوكة لأغراض سافلة إلا أنهم لم يثبتوا ، ولم يتم لهم الأمر . بل كان عارض السوء منهم كسحاب الصيف ، كلما ظهر انقشع .

« والنظام الحقيقى لنوع الإنسان - وهو الدين - لم يزل قائما راسخا ، فى جميع الأجيال ، وعلى أى الأحوال . فلم تبق ريبة فى أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان . فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهى الحق ، ولم يخالطه شئ من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه : فلا ريب أنه يكون سببا فى السعادة التامة ، والنعيم الكامل ، ويذهب بمعتقديه فى جوار الكمال الصورى والمعنوى ، ويصعد بهم إلى ذروة الفضل الظاهرى والباطنى ، ويرفع أعلام المدنية لطلابها . بل يفيض على المتحدثين من ديم الكمال العقلى والنفسى ما يظفرهم بسعادة الدارين « (٤٩) .



(٤٩) المصدر السابق ص ١٠٥ ، ١٠٦

(٤٨) المصدر السابق ص ١٠٤

● أوجه المشاركة في الفكر :

أولاً : وهنا يلخص جمال الدين هذه الأوجه ، ويتحدث عنها فيقول :
« لقد وضعوا مذاهبهم على بطلان الأديان كافة ، وعدوها أوهاما باطلة
ومجعولات وضعية .. »

ثانياً : قالوا : إن الإنسان في المنزلة كسائر الحيوانات ، وليس له من
المزايا ما يرتفع به على البهائم ، بل هو أخس منها خلقة ، وأدنى فطرة .
فسهلوا بذلك على الناس إتيان القبائح ، وهونوا عليهم اقتراح المنكرات
ومهدوا لهم طرق البهيمية ، ورفعوا عنهم معايب العدوان .

ثالثاً : ذهبوا إلى أنه لا حياة للإنسان بعد هذه الحياة ، وأنه لا يختلف
عن النباتات الأرضية : تنبت في الربيع مثلاً ، وتبيس في الصيف ، ثم تعود
تراباً . والسعيد من يستوفي في هذه الحياة : حظوظه من الشهوات البهيمية .

« وبهذا الرأي الفاسد أطلقوا النفوس من قيد التائبين ، ودفعوا إلى
أنواع العدوان ، من : قتل .. وسلب .. وهتك عرض . ويسروا لها الغدر
والخيانة .. وحملوها على فعل كل خبيثة .. والوقوع في كل رذيلة ..
وأعرضوا بالعقول عن كسب الكمال البشري » (٥٠) .

« ويزيد في شناعة ما ذهبوا إليه ، أن في أصولهم : الإباحة والاشتراك
المطلقين ، فيزعمون أن جميع المشتبهات حق شائع ، والاختصاص بشيء منها
يعد اغتصاباً .. »

فلم يبق للخيانة محل ، فإن الاحتيال لنيل الحق لا يعد خيانة ، ومثلها
الكذب ، فإنه يكون وسيلة للوصول إلى حق مغتصب - في زعمهم -
فلا يعد ارتكاباً للقيح .

« لا جرم أن آراء هذه الطائفة مروجة للخianات .. باعثة على افتراء
الأكاذيب .. حاملة للأنفس على ارتكاب الشرور والرذائل ، وإتيان الدنيايا
والخبائث » (٥١) .

(٥١) المصدر السابق ص ٦٦

(٥٠) المصدر السابق ص ٤٦

● في الأثر على الإنتاج والعمل الإنساني الرفيع :

« وهذه الطائفة النيتشرية تسعى لتقرير الاشتراك في المشتريات ، ومحو حدود الامتياز ، ودرس رسوم الاختصاص ، حتى لا يعلو أحد عن أحد ، ولا يرتفع شخص عن غيره في شيء ما ، ويعيش الناس كافة على حد التساوي ، لا يتفاوتون في حظوظهم .

« فإن ظفرت هذه الطائفة بنجاح في سعيها هذا ، ولاق هذا الفكر الخبيث بعقول البشر ، مالت النفوس إلى الأخذ بالأسهل : فلا تجد من يتجشم مشاق الأعمال الصعبة ، ولا من يتعاطى الحرف الخسيسة ، طلباً للتساواة في الرفعة . فإن حصل ذلك اختل نظام المعيشة ، وتعطلت المعاملات ، وبطلت المبادلات ، وأفضى إلى تدهور هذا النوع في هوة الهلاك .

« نعم إن أفكار المصايين بالماليخوليا لا تنتج أحسن من هذه النتيجة . ولو فرضنا محالاً وعاش بنو الإنسان على هذه الطريقة العوجاء ، فلاريب أن تمحى جميع المحاسن ، وضروب الزينة ، وفنون الجمال العملى ، ولا يكون لبهاء الفكر الإنساني أثر ، ويفقد الإنسان كل كمال ظاهر أو باطن ، صورى أو معنوى ، ويعطل من حلى الصنائع ، وتغرب عنه أنوار العلم والمعرفة ، ويصبح في ظلام جهل ، وبلاء أزل ، وينقلب كرسى مجده ، ويثقل عرش شرفه ، ويصح في بادية الوحشية كسائر أنواع الحيوان ، ليقضى فيها أجلاً قصيراً مفعماً بضروب الشقاء ، محاطاً بأنواع من المخاوف ، محشواً بأخلاق من الأوجال والأهوال .

« فإن المبدأ الحقيقى لمزايا الإنسان : إنما هو حب الاختصاص ، والرغبة في الامتياز فهما الحاملان على المنافسة ، السائقان إلى المباراة والمسابقة . فلو سلبت هاتين أفراد الإنسان : وقتت النفوس عن الحركة إلى معالى الأمور ، وأغمضت العقول عن كشف أسرار الكائنات ، واكتشاف حقائق الموجودات ، وكان الإنسان في معيشتة على مثال البهائم البرية - إن أمكن له ذلك - وهيئات هيهات ! (٥٢) .

تلك تحديات الفكر المعاصر الذى تسرب وكاد يستوطن فى المجتمعات الإنسانية .. فى تفكير الخاصة والعامة على السواء ، وهى تحديات تتطلب قوة الإيمان بالإسلام .. وحسن الفهم والعرض لمبادئه فى مواجهة هذه التحديات ، خشية من ضياع شباب اليوم .. وذهاب الإسلام لفترة لا يعلم مداها إلا الله .

إن التحديات المعاصرة للإسلام .. ولكتاب الله .. ولإيمان المسلمين بهما : هى تحديات تصور جولة قاسية ضد القرآن ، من أولئك الملحدون الصادقون عن سبيل الله .. ومن رفقاءهم فى الاستعمار ، الذين تدفعهم نوازع السيطرة والاستغلال وراء الصليبية العالمية .. هى تحديات شرسة ، وكريهة ، نفذت بالفعل إلى شرايين الحياة الإسلامية .. وتواجه الآن وجهها لوجه : الإيمان بالإسلام فى قلوب ملايينهم ، وبالأخص : قلوب الشباب .

وإن هذه التحديات فى قوة دفعها .. وفى شراسة تشبثها بعقول المسلمين .. وفى نفاذها المحكم : تواجه مع ذلك ضعفاً بيننا .. أى بين دعاة الإسلام وعلماؤه . وقد تواجه استسلاماً من بعضهم .. أو قبولاً عند البعض الآخر فى غفلة من الإيمان لديهم .. أو فى يقظة تلتبس بها آمال مؤقتة وزائلة .

وعندما يتسرب الإلحاد إلى قاعات الدراسة فى جامعة الأزهر باسم التبادل الثقافى ، يحملها الصادقون عن دين الله من جامعة « كارل ماركس » بالقسم الشيوعى من ألمانيا .. أو بأى اسم آخر : فقد دق عندئذ ناقوس الخطر ، ينذر : بأن شعار : لا إله إلا الله .. محمد رسول الله ، قد أحاطت به سواعد الفناء : فى معقله وفى حصنه الأخير .

وإن الله لا يحفظ دينه إلا بقلوب المؤمنين به . فإيمان القلوب هو الذى يرفع دين الله بالحفظ .. ويحول دون النيل منه فى وجه الظالمين .

فهل لدينا بقية من إيمان تتصدى بها لشرح دين الله ، ورد الشبهات السافرات . وهى سهام قاتلة ، توجه من هنا .. وهناك : إليه ؟ .

إن هذا الحديث عن التحديات للقرآن بالأمس .. واليوم : هو أولاً : عرض لخطة الأسلاف منا ، فى الدفاع عن العقيدة والإيمان بها . ومهما يكن

في خطتهم من نقاط ضعف أو سليات : فقد قاموا بواجبهم بالفعل نحو دين الله ، في مواجهة الرواسب الفكرية والأيدولوجية في المجتمعات الإسلامية .

وفي الوقت نفسه هو ثانيا : تصوير مجمل للمشاكل والتحديات المعاصرة التي يرمى بها الإلحاد العلمى .. وتدفع بها الصليبية الدولية معه للتشويش على الإسلام أملا في انصراف الأجيال التي ستحمل المسؤولية غداً في المجتمعات الإسلامية : عنه ، وعن مبادئه وبذلك تهتز أقدام المسلمين على أرض مجتمعاتهم .. ويعيشون أتباعا لسلطان غيرهم .. وعلى الفئات الباقى من ثروات بلادهم ، والتي يعملون فيها آتئذ لحساب هؤلاء الأسياد .. أو لأولئكم .

فهل يسمع النداء ؟ .. وهل من مجيب ؟

* * *